## مجالات الإصلاح في المجتمع



◄ الإنسان أفضل المخلوقين وأكرمهم عند ا□.. سخّر ا□ له ما في السّموات والأرض، واختاره لكي يكون خليفته في الأرض ليحمل القيم الإلهيّة الجميلة في سلوكه وأخلاقه وتعامله مع الناس وخدمته لهم.. إنّه بإختصار "سفير الرَّحمة الإلهيّة".

ولذا كان محور بعثة الأنبياء وجهاد الأولياء السعي لتكامل هذا الإنسان علما ً وحلما ً والوصول بالمجتمع البشري إلى شاطئ الأمن والسلام والمود ّة والوئام، لذا يقول ا تعالى عن رسوله الكريم(ص): (وما أرسلناك َ إلا ّ رحمة ً للعالمين) (الأنبياء/ 107)، ويقول الرسول الكريم: "إناّما بُعثت لأُ تم ّ مكارم الأخلاق".

من هنا كان ويكون: إصلاح الإنسان والمجتمع البشري، ذاتاً: مفاهيم وقيماً، وأخلاقاً وتربية، الهدف الأساس لكلّ عملية الإصلاح في الإسلام، ولذلك توجّهت الآيات الكريمة في مجمل القرآن الكريم إلى خطاب الفرد بنفسه، لكي يؤمن ويتوب وي ملح نفسه قبل الآخرين.. ومن ثمّ تتّجه إلى خطاب الجماعة المؤمنة للإصلاح، في نفسها وحالها، كي تصلح الآخرين.. ومن ثمّ تتّجه إلى مطالبة الناس جميعاً بالإصلاح لأنّ في

ذلك فلاحهم ونجاتهم وبقاء النوع الإنساني واستمراره على الأرض، بدلاً من إفسادها وهلاكهم جميعاً نتيجة لسوء عمل البشر وفساد تدبيره.

يقول تعالى: (يَا أَيَّ بُهَا الَّ َذَيِينَ آمَـنُوا عَلَيَّكُمْ ْ أَنَّهُ سَكَّمُ ْ لا يَصَرَّ ُكُمْ ْ مَن ْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيَّتُمْ ...)(المائدة/ 105).

ويقول تعالى: (فَمَن ْ آمَن َ وَأَص ْلاَحَ َ فَلا خَو ْف ْ عَلاَيهْمِ ه ْ وَلا ه ُم ْ يَح ْزَنَونَ) (الأنعام/ .(48

ويقول جلّ شأنه: (وَ إِن ْ تُص ْلمِحُوا و َت َتَّ قُوا فَ إِن ّ َ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا ر َح ِيمًا) (النِّساء/ 129).

ويقول: ( ِن َّمَا الـْمُؤْم ِن ُونَ إِحْو َة ٌ فَأَ صَّل ِح ُوا بَينْنَ أَخَو َيثْكُمْ و َاتَّ َقُوا اللَّهَ َ لـَعـَلَّ َكُمْ تُر ْحـَم ُون َ) (الح ُجرات/ 10).

ويقول جلّ شأنه: (وَلا تُفْسِدُ وا فِي الأرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلَكِكُمْ خَيِبْرُ لَكَكُمْ) (الأعراف/ .(85

ويقول: (و َمَا كَانَ ر َبِّ كُ َل ِيهُ هم لَكَ ال ْقُررَى ب ِظ ُلهْم ٍ و َأَ ههْل ُهمَا مُصهْل ِح ُون َ) (هود/ 117).

ويقول الرسول الكريم(ص): "ليس الإيمان بالتحلّي ولا بالتمنّي، ولكن الإيمان ما خلص في القلب وصدّقته الأعمال".

إذن، محور الإصلاح، كما يراه الإسلام، وكما يعرضه القرآن، يبدأ بالتربية وإصلاح الذات: من الإنسان، فأهله وذر ّيته، ثم ّ المجتمع، الأقرب فالأقرب، والأولى فالأولى، فلا يتناسى الإنسان المُصلح نفسه، فأهله وذر ّيته، ثم ّ المجتمع، الأقرب فالأقرب، والأولى فالأولى، فلا يتناسى الإنسان المُصلح نفسه، فيكون من الذين ذم هم ا□ تعالى بقوله: (ياً أَي ّهُا السّادَيينَ آمَنُوا ليمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ) (الصف/ 3-2). تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ) (الصف/ 3-2).

ولا يغفل عن عائلته التي هو مسؤول عنها، قال تعالى: (ياً أَيَّهُا الَّدَيِنَ آمَنُوا قُوا أَنَّهُ سَكُمُ وَأَهَلْاَيكُمُ نَارًا وَقُودُهاَ النَّاسُ وَالنَّدَجَارَةُ...) (التحريم/ 6). ولا ينسى وظيفته في المجتمع، كما يقول الرسول(ص): "كلَّكم راع وكلَّكم مسؤول عن رعيته".

إن "الإنسان يتأثر بالمحيط الذي يعيش فيه، وتتألّف معالم شخصيّته الأولى في البيت الذي يتربّى فيه، وتتألّف معالم شخصيّته الأولى في البيت الذي يتربّى فيه، فإذا كان الخير والصلاح يعمّه، والعدل والإحسان يسوده، والخلق والسماحة تشيع فيه.. نشأ الإنسان متعادلاً ومتوازناً وشب على حب الخير والصلاح واتّسم بح ُسن الأخلاق.. وهكذا تكون أجيال متعاقبة من الصالحين، بعضهم من بعض، والأسرة هي نواة المجتمع، ومن مجموع الأسر الصالحة يكون المجتمع الصالح.

قال تعالى: (جَنَّاَتُ عَدَّنِ ِيَدَّخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ و وَذُرِيِّيَّاتِهِمْ...) (الرِّعَد/ 23).

ولابد "من ملاحظة مسألة مهم "ة وهي أن "كثيرا أمن الأخلاق الفاسدة في الحكم والإدارة والتعامل مع الناس تبتدئ جذورها من التربية البيتي "ة، فالبيت الذي يقوم على الاستبداد والسلطة المطلقة، وتكون العلاقات فيه مبني "ة على الخوف والقهر من الأب أو الأ م.. هذا البيت نموذج مصغ "ر للحكومة المستبد "ة التي فيها قاهر ومقهورون، وظالم ومظلومون، وحيث ت منقد فيها الحر " يات والرأي الآخر.. سيكون الولد الذي يخرج من هذا البيت أحد إثنين: إم "ا شخص مهزوم الشخصية، منكسر الذات، يعاني الكبت والحرمان.. وإم "ا آخر يبحث عن التعويض عم "الاقاه وعم "ا افتقده من خلال ممارسة نفس السلوك مع الآخرين.. مع أهله وولده وأفراد مجتمعه، وقليل م أن يكونون متعادلين راشدين.

إن هذا البيت لا ينسجم مع ما وصفه ا□ للأسرة، وبالشكل الذي يريده، فهو مُنافٍ لقوله تعالى: (وَمَنْ آيَاتَهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مَنْ أَنَاهُ سِكُمْ أَزَوْوَاجًا لِيَسَسْكُنُوا إِلَيهْا وَجَعَلَ بَيَاتٍ لِيقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الرُّوم/ 21).

ولا ينسجم أيضاً مع سنّة الرسول(ص) الذي يقول: "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي". وقوله(ص): "أكرموا أولادكم وأحسنوا آدابهم يغفر لكم ".

وتتكامل حلقات التربية في البيت مع نظيراتها في المجتمع: المدرسة والجامعة، والمحيط الاجتماعي، في الشوارع ودوائر الدولة، والمجالس العامّة، وغيرها، وهذه بدورها تؤثّ َر في تشكيل الشخصية الخارجية للفرد وسلوكه الاجتماعي العام، ولذلك يجب العمل على أن يكون التعامل في كل هذه المجالات قائما ً على أساس احترام الإنسان وإكرامه، كما أراد ا□ تعالى، الذي قال: (و َل َق َد ْ ك َرّ ً م ْن َ ل ب َن ِي آد َم َ

و َح َم َلاْنتَاه ُمْ فِي الاْبَرِ ّ و َالاْبَح ْرِ و َر َز َق ْناَه ُم ْ مِنَ الطّّ َي ِ ّبَاتِ و َفَضّ َلاْناه ُم ْ عَلَى كَثِيرٍ مِمّ ّن ْ خَلَقَاْنا تَف ْضِيلا) (الإسراء/ 70).

ومن ثمّ احترام حقوقه ومساعدته للنهوض بواجباته، على أساس القانون الذي يحمي الجميع وي ُحاسبهم بمعيار واحد.

وينبغي أن يكون في كلِّ المراحل منهج تربية يُوفّ ِر للإنسان فرص التعبير عن رأيه مع احترام الرأي الآخر وتنمية روح النقد البنّاء مع نيّة صالحة تهدف إلى إصلاح الأوضاع والنهوض بها، فالممارسات الحـُرّة تحتاج إلى تدريب وتأهيل عليها منذ الصغر حتى ينعم بها الأفراد بصورة معتدلة بعيداً عن التطرُّهُ والغلو الذي ينتجه عادة الكبت أو الإنفلات غير الملتزم.

والهدف الأساسي لمنهج التربية في الإسلام يقوم على أساس الوصول بالفرد إلى الرَّّ ُشد، وهو المستوى الذي يستطيع فيه الإنسان أن يختار ما يـُصلح دينه ودنياه.

والرِّ ُشد هدف عام يسعى الإسلام لإيصال المجتمع بصورة عامَّة إليه، حتى يتمَّ اختياره لطريقه في الحياة، اختيارا ً واعيا ً وعاقلا ً، قال تعالى: (لا إ ِكـْرَاه َ فـِي الد ِ ّين ِ ق َد ْ ت َبـَيَّ َنَ الرّّ ُش ْد ُ م ِنَ الـ ْغ َب ِ ّ...) (البقرة/ 256).

ومن ثم ّ يأتي العمل على إشاعة الأخلاق الصالحة التي تحفظ للمجتمع جماله وكماله وحلاوته وطراوته للمعيش الجميع متحابسين متوادسين، يتسّقون ا□ في معاملاتهم ويتصالحون ويصلحون فيما بينهم، كما أمرا ا□ بقوله: (فَاتَّهُ وَاللَّهُ وَأُصْلاً حُوا ذَاتَ بَيْنَكُمْ ) (الأنفال/ 1)، وكما أوصى الرسول الكريم.. فقد روي عنه(ص) أنسّه قال لمعاذ لمسّا بعثه إلى اليمن: "يا معاذ، علسّيمهم كتاب ا□ وأحسن أدبهم على الأخلاق الصالحة ".

وبذلك نعرف أنّ الإصلاح التربوي هو الأساس لكلّ ِ إصلاح، ومنهج الإصلاح في ذلك ينبغي أن يكون على نمطين، حددّهما القرآن نفسه وأكّدتها السيرة النبويّة.. قال تعالى: (هُوَ الَّنَدِي بَعَثَ فَي الأمرِّيرِّينَ رَسُولا مِنْهُمُ وَيَتْلُو عَلَيْهِمْ آينَاتِهِ وَيُزْكَرِّيهِمْ وَيُعَلَرِّمُهُمُ الْ°كَيِتَابَ وَالدْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبِّلُ لَـَفْرِي ضَلالٍ مُبْبِينٍ) (الجمعة/ 2).

النمط الأو ّل: التعليم، ويشمل تعليم كتاب ا□ وما فيه من هدى وبيان وأحكام، حتى تت ّضح للإنسان معالم

دينه وحدود ا□ المرسومة لسلوكه، فيقف عندها ولا يتعدّّاها، وفي ذلك يقول الإمام علي (ع): (أفضل الأدب أن يقف الإنسان عند حدّّه ولا يتعدّّى قدره).

النمط الثاني: التزكية، بما يتضمّن هذا العنوان من تدريب النفس على تجنّب الهوى وإتباع الشيطان وترفعها عمّا يحطّ من قدرها ويمسّ كرامتها، من سوء الفعال وإرتكاب المعاصي والآثام.

وفي المقابل، تحلية النفس بمكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال وبما يصلحها ويدنيها من شيم الصالحين وأخلاق الطيِّبين، من الأنبياء والرِّ'سُل، وعباد ا□ المقرِّبين، م َن حكى ا□ سبحانه وتعالى سيرتهم وشاع في الناس علوّ درجاتهم، على الخصوص خاتم النبيِّين محمّد(ص) وأهل بيته الطاهرين وأصحابه المنتجبين.

قال تعالى: ('ولَـنَـِكَ السَّنَدِينَ آتَيَّنَاهُمُ الْكَيِتَابَ وَالْحُكُمْ وَالنَّبُوَّةَ فَإِنْ يَكَّفُرُ ْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلَاْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ \* أُولَـنَـكَ السَّنَدِينَ هَدَى اللَّهُ وُبَهِدُاهُمُ اقْتَدِه.ِ..) (الأنعام/ 90-89).

وقال تعالى: (لـَقَدْ كَانَ لـَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لـِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالدّيوَهُمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثْبِيرًا) (الأحزاب/ 21).

وقال تعالى: (...إِنَّ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِييُذُهْ هِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِ ِّرَكُمْ تَطْهْ ِيرًا) (الأحزاب/ 33).

وقال تعالى: (وَالسَّابِيقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الدَّمُهُاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالسَّنَدِ ينَ الدَّمُهُاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالسَّنَاتِ التَّبَعُوهُمُ وَرَضُوا عَنَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمُ جَنَّاتٍ التَّبَعُوهُمُ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهَ عَنَنْهُمُ وَرَضُوا عَنَنْهُ وَأَاعَدَّ لَهُمُ جَنَّاتٍ تَحَرْدِي تَحَنَّهَا الأَنْهَالِ خَالَدِينَ فَيِهَا أَبَدًّا ذَلَكَ النَّفَوْزُ النَّعَظِيمُ) (التوبة/ 100).

والإصلاح في كلّ ِ نواحي المجتمع يجب أن ينطلق من محور إصلاح الإنسان، الذي يقود الحياة ويـُدير الأعمال ويـُوجّ ِهها. وبمقدار ما يتمّ التغيير ويفلح الإصلاح في الإنسان الفرد، في ذاته ونفسه، في أفكاره وقيمه، في سلوكه ومناهج عمله.. تتم عملية التغيير في المجتمع كلّه وتتقدّم عملية الإصلاح، يقول تعالى: (إِنّ َ اللَّهَ مَ لا يـُغـَيـِ ّر ُ مـَا بـِقـَو ْم ٍ حـَتّ َى يـُغـَيـِ ّر ُوا مـَا بـِأ َن ْفـُسـِهـِم ْ) (الرّ َعد/ 11). وهذا قانون إلهي وسنيّة اجتماعية ثابتة اعترف بها علماء الاجتماع وتابعهم في ذلك علماء السياسة، حتى أنيّهم لا يرون تقديّم المجتمع وتطويّر مفاهيمه وتغييّر واقعه في مجال الإصلاح السياسي إلا ّ بالعمل على تربية الإنسان وترقية أفكاره منذ الصغر، وأن تكون مفاهيم احترام الرأي الآخر وتقبيّل التعددية والديمقراطية ممارسة ثقافية وتربوية في البيت والمدرسة، ينشأ عليها الطفل ويشبيّ عليها بدلاءً من الستبداد والتسليّط واستخدام القويّة، وغيرها من المفاهيم الفاسدة الحاكمة والسارية في المجتمعات القمعية والدكتاتورية.

والقرآن الكريم يتحدّث عن إصلاح الذرّية.. كما ورد على شكل الدُّعاء: دعاء أبي الأنبياء (وَأَصَّلَحَ ليس مجرّد أُمنية أو دعوة عابرة، بل هو طلب من الله تعالى لتوفيقه لإصلاح ذُرّييته: إنّها رغبة وإرادة وإستعانة بالله وإستهداء به لتربية الأولاد وتنشئتهم النشأة الصالحة ليكونوا بناة ورعاة للمجتمع الصالح.. إنّها دعوة كما تقول: (إيّاك نَعبد وإيّاك نستعين \* اهدينا الصّيراط الم ُستقيم \* صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضّالـّين) (الفاتحة/ 5-5).

إنها دعوة عزم وتصميم وإرادة وعمل للسير على منهج ربّاني صالح، اختاره ا□ لعباده المقرّبين (وَمَنْ يُطَعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّدَيِنَ أَنْعَمَ اللَّهَ عَلَيْهٍمْ مُ مَنَ النَّبَدِيِّينَ وَالصِّدِيّيقَيِنَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالدِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئَكَ رَفَيقًا) (النِّساء/ 69).

وكذلك تأتي دعوة أخرى: (وَأَدَّ حُرِلْ نَي بِرَحْ مَتَكَّ فَي عَبِاً دِكَ الصَّالِيحِينَ) (النمل/ 19)، فإنَّها تتم وتتحقق بالعمل، لا مجرد التمنَّي، لذلك يقول تعالى: (وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهَ عَمَلاَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنَونَ وَسَتُرَدَّ وُنَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ

ويتعرّض القرآن، استمرارا ً لمنهجه في إصلاح التربية، إلى موضوع التعامل مع اليتامي، والذين يلقون إهتماما ً خاصا ً في الإسلام لتعويضهم عمّا افتقدوه من رعاية الأب، أو الوالدين، وقد أكّد على ح ُسن معاملتهم ورعايتهم مادّيا ً ومعنويا ً في مواضع كثيرة، منها قوله تعالى: (و َاعْبُدُوا اللَّهَ و َلا معاملتهم ورعايتهم مادّيا ً ومعنويا ً في مواضع كثيرة، منها قوله تعالى: (و َاعْبُدُوا اللَّهَ و َلا تهُ مُرْ بَي و َالْيتَامَى تُشْرِ كُوا بِهِ شَيْئًا و َبِالْو َالرَّدَيْنِ إِحْسَانًا و َبِذِي الْقُبُر ْبَي و َالاْيتَامَى و َالاهمَّا وَ الله عَلَي و َالله عَلَي و مَا الله عَلَي و َالله عَلَي و مَا الله عَلَي و مَا الله عَلَي و مَا الله عَلَي و مَا الله عَلَي و مَالله عَلَي و مَا الله عَلَي الله عَلَي و مَا الله عَلَي الله عَلَيْ الله عَلَي عَلَي الله عَلَي الله عَلَي الله عَلَي عَلَي عَلَي عَلَي الله عَلَي الله عَلَي الله عَلَي الله عَلَي الله عَلَي الله عَلَي عَل

فَخُورًا) (النَّيساء/ 36).

وقوله تعالى: (فأمّا اليَتيم فلا تَقهَر \* وأمّا السائل فلا تَنهَر \* وأمّا بنعمة ربّك فحدّ ِث) (الضُّحي/ 11-9).

واستمرارا ً لهذا النهج، يؤكِّد الإسلام على حُسن التعامل معهم بما يُصلح حالهم وينفعهم في مستقبلهم، فيقول تعالى: (ويسألونك َ عن اليَتَامَى قُلُ إصلاح ٌ لهم خير ٌ وإن تُخالطوهم فإخوان ُكُمُ وا َ يَعلَم ُ المفسِد َ مِنَ المُصلِح ِ ولو شاء َ ا لاَ عالَى الله عليه المؤسِد َ مَن َ المُصلِح ِ ولو شاء َ ا لاَ عالَى الله عنه الله عنه ويا َ عنه عنه عنه ويا َ عنه عنه عنه ويا َ عنه ويا ُ البقرة / ويا َ عنه عنه ويا َ عنه وي وا َ الله عنه ويا َ ع

وهو نهج عام للتعامل مع عموم الأولاد، إذ إن ّ (العبرة بعموم اللفظ لا خصوص السبب)، كما يقول الأُصوليون، فالوالد يُسمَّى رب ّ الأسرة، لأنَّه المسؤول والمعني بتربيتها وتوجيهها ليكون الأولاد صالحين، يستطيعون شق طريقهم في الحياة والنهوض بمسؤولياتهم الفردية والاجتماعية، بما يسعدهم في الدارين، بتوفيق ا□ وهدايته.

وهكذا نتوصّل إلى أنّ الإصلاح في الجانب التربوي، أساس كلّ صلاح، به يتقوم بناء الإنسان ليسلك طريق الخير والفلاح. ◄

المصدر: كتاب نظرية الإصلاح من القرآن الكريم